في ذكرى النكبة

سوء الأداء يعمق الأحزان

الدكتور عبد الستار قاسم

21/صفر/1422

مرت السنين ثقيلة مليئة بالمرارة والدموع والأحزان. كلما ظهر بريق أمل وفاضت المشاعر والأحاسيس صُدم الشعب الفلسطيني بفاجعة جديدة، وكلما تفاعل وانفعل انتظارا لبهجة أو خلاص عاد أدراجه يلعق جراحا جديدة تفتقت عنها جراح دامية قديمة. من انقلاب الضباط الأحرار في مصر عام 1952 إلى التغييرات السياسية في مختلف أرجاء الوطن العربي إلى الحروب المتعاقبة فالانتفاضات فحربي الخليج ومؤتمر مدريد وما تلاه من اتفاقات وما رافق كل ذلك من مفاجآت وصيحات، قفزت القلوب وهتفت الجماهير وتشابكت الأيدي وسرت في النفوس خلجات الانتصار لتعود العيون إلى ذبول بلا بريق والآذان إلى صمم بضجيج المأساة والأيدي إلى أصفاد كأنها لم تكن يوما طليقة. ارتدت النفوس منكسرة يلفها إحباط بنى صرحه على أنقاض أمل، وتقلصت القلوب إلى مواضعها حسرى تكاد الدماء لا تجد من انكماش الحجرات لها مخرجا. رحيل تلو رحيل، وقافلة من الشهداء تتبع قوافل قد سبقت، وأنات الأرامل مطوقة بقطرات دمع اليتامى تصرخ في الحياة من قسوة الإنسان.

توالت الأحداث ومع كل حدث كان على الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمنا باهظا يثقل ظهره بالمزيد. لقد دفع الناس الكثير وما يزالون يدفعون الدماء سيالة من أجل حريتهم وانتزاع حقوقهم. شعب لا يكل ولا يمل ولا يعرف الاستسلام أو الخلود إلى راحة تضعفه أو تمكن منه العدو. هذا شعب أبيّ معطاء لن تهدأ تضحياته إلا بتحقيق آماله، ولن يهدأ له بال إلا بتحقيق النصر المبين. يظن الواقفون على مسرح بعيد خطأ أن شعب فلسطين قد جنح إلى التسليم بالواقع المرير مع كل مرة تفتر فيه المقاومة أو في كل وقت تسوده حالة استرخاء، لكن ذلك يبقى مجرد محطة تتبعها محطات تصب جميعها نحو نتيجة لا بد آتية وهي عودة فلسطين إلى أصحابها.

لكن مأساة شعب فلسطين الكبرى لا تتمثل فقط بالغزو الصهيوني والاحتلال والتشريد وإنما أيضا في تلك التضحيات التي أهدرتها القيادات وساومت عليها في جهودها السياسية والدبلوماسية. دفع شعب فلسطين الدماء ولم تجد قياداته على مدى ثمانين عاما ما تقدمه في المقابل إلا وعودات سياسية تغلفها خطابات عصماء أتت على كل المنجزات. ولهذا لم تبق نكبة عام 1948 يتيمة بل تلتها نكبات قاسيات. لن يكون هناك متسع في هذا المقال للمرور على كل النكبات، إلا أنه من الممكن الوقوف قليلا عند محطات هامة.

التقسيم والتشتيت

اجتزأ التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1947 حوالي 53% من أرض فلسطين الانتدابية للحركة الصهيونية التي اقترب عدد من هجّرتهم إلى فلسطين لغاية ذلك التاريخ حوالي نصف مليون، وأبقى للفلسطينيين الذين بلغ عددهم حوالي المليون ونصف المليون 44 %، بينما تم تخصيص حوالي 3% من مجمل المساحة كمنطقة دولية وتشمل منطقتي القدس وبيت لحم. لم يطبق قرار التقسيم هذا كما هو وإنما تمدد نصيب الحركة الصهيونية مع نهاية حرب عام 1948 ليصبح حوالي 75% من أرض فلسطين الانتدابية. لكن هذه النسبة لم تستقر طويلا حيث تمدد نصيب إسرائيل عقب توقيع اتفاقية الهدنة الأردنية–الإسرائيلية إلى

حوالي 77%. تنازل الجانب الهاشمي عن جزء من مثلث جنين–نابلس–طولكرم والذي شمل قرى عديدة منها أم الفحم وعارة وعرعرة والطيبة وباقة الغربية والطيرة وقلنسوة. ثم تمددت إسرائيل في منطقتي الحولة في الشمال والعوجا في الجنوب واستولت على المزيد من الأراضي في بداية الخمسينات وطردت عددا من السكان العرب.

استولت إسرائيل على باقي الأرض عام 1967 وأنهت بذلك مسألة التقسيم لتصبح فلسطين الانتدابية بأكملها تحت سيطرتها. ومن ثم تحول الاهتمام من سلب الأرض إلى تقسيم أو تفتيت الشعب ليس جسديا وإنما ثقافيا ومعنويا حتى لا يكون هناك من يطالب بالأرض. تركز الاهتمام على تمزيق الشعب بهدف تحويله على أفراد يبحثون عن لقمة الخبز. تمت المحاولة على الرغم من أن الفكرة غبية وتقوم على افتراض غبي مفاده أن الشعب يخلو من كل عمق ثقافي أو تاريخي أو ديني وأن اختفاءه ممكن وبسهولة.

يتمشى هدف إذابة الشعب الفلسطيني مع الهدف الصهيوني المتمثل بأن أفضل الخطى نحو البقاء بدون تحديات هو غياب الجسم الذي يمكن أن يطالب بحقوق. فإذا بقي الشعب الفلسطيني متماسكا فإن الصراع سيستمر أو سيبقى في حالة كمون ما تلبث أن تنبثق مع شعور الشعب بالقوة. بقاء الشعب الفلسطيني يعني بقاء التراث والثقافة والذكريات والحنين والتاريخ والحضارة والمستقبل، وما دام الناس يتفاعلون معا وينشطون في شراكة وإخاء ضمن نبع ثقافي وفكر واضح المعالم والتوجهات فإنهم يشكلون خطرا على المشروع الصهيوني وإمكانية استمراره في البلاد. وما دام الشعب شعبا تكمن في مخيلته أو في مؤخرة رأسه الرغبة في البقاء والتجمع فإنه لا بد أن ينهض حتى لو ذاق الهزائم والويلات ومختلف صنوف العذاب. أي أن استمرار الشعب يعني استمرار التحدي القوي للوجود الصهيوني.

ولهذا عملت إسرائيل والدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على البحث عن سبل تمزيق الشعب الفلسطيني وتذويبه من خلال دمج أفراده في المجتمعات التي تواجدوا فيها بعد تشريد عام 1948، أو من خلال التوطين في البلاد العربية بحيث يفقدون ارتباطهم بوطنهم مع الأيام. وقد تم العمل بداية في اتجاهين: اتجاه نحو الفلسطينيين في الأرض المحتلة/48 وآخر نحو الفلسطينيين في شرقي الأردن والوسط الشرقي من فلسطين (ما يعرف بالضفة الغربية). حملت إسرائيل العصا الغليظة للفلسطينيين في المحتل عام 1948 بهدف تحويلهم إلى إسرائيليين يهتمون بشؤونهم اليومية ضمن النظام الإسرائيلي وبمعزل عن امتدادهم الفلسطيني والعربي والإسلامي. وتم العمل في الأردن لصالح هوية أردنية لا تهدف إلى تحقيق الوحدة بين الشعبين الأردني والفلسطيني وإنما إلى طمس القضية الفلسطينية.

إلى جانب هذا، عملت الدول الغربية على البحث عن مكان أو أمكنة لنقل الفلسطينيين إليها ليعيشوا حياة يومية بعيدة عن الطموحات السياسية أو تأكيد الهوية. وحتى تتحقق الأهداف الصهيونية كان على الشعب الفلسطيني أن يبقى تحت الضرب والقهر ومحاولات الإذلال. وما زالت الولايات المتحدة حتى هذه اللحظة تبحث عن أماكن استيعاب وتعمل على إقناع دول مثل كندا وأستراليا لفتح باب الهجرة أمام الشباب الفلسطيني.

نكبة عام 1967

جاءت حرب عام 1967 متأخرة كثيرا عن موعدها الذي اعتقد أنه كان في الخمسينات. رأت إسرائيل أن العرب كشعب لن يقتنعوا بقبول إسرائيل كجزء لا يتجزأ من المنطقة ولن يوافقوا على عقد اتفاقيات صلح معها إلا إذا ذاقوا مرّ الهزيمة العسكرية وأيقنوا أن قادتهم إنما يكذبون ويضللون بهدف بقائهم في الحكم. كان على الشعب العربي أن يلمس القوة الإسرائيلية ليوافق على ما يتخذه قادتهم من مبادرات سلمية

مع إسرائيل، وقد رأى كيف أن هزيمة عام 1967 كانت ساحقة ماحقة، وكيف ولّت الجيوش العربية الأدبار. ومع الزمن وتوالي الإحباطات، كان لا بد أن يقبل إسرائيل ولو على مضض من خلال اتفاقيات صلح.

دفع الشعب الفلسطيني ثمنا باهظا بسبب هذه الحرب، فتشتت فوق التشتيت. مئات الآلاف من الفلسطينيين هربوا من فلسطين مباشرة بعد الحرب وخلال سنوات الاحتلال الإسرائيلي. منهم من هرب خوفا، ومنهم من غادر يأسا، ومنهم من استهوته الحياة خارج البلاد ولم يعد. أما الذين عاشوا تحت الاحتلال فقد وقعوا تحت صنوف العذاب والقهر ومحاولات الإذلال. فمنذ العام 1967، لم تشهد منطقتا الوسط الشرقي وساحل غزة أي نوع من الاستقرار السياسي أو الاقتصادي أو الأمني. توالت الأحداث والتوترات والصراعات حتى عانى كل بيت فلسطيني وكل فرد بطريقة أو بأخرى، أو بهذه الحدة أو تلك. لم ينج فلسطيني واحد من أعمال الإرهاب أو مشاعر الرعب أو الخوف أو عدم الاطمئنان. آلاف استشهدوا، ومئات الآلاف اعتقلوا، وعشرات الآلاف نزفوا الدماء، بيوت هدمت ودمرت، وممتلكات خربت، وأراض صودرت، وأشجار اقتلعت. هكذا كان الأمر عبر السنوات الثلاثين، وما زال على وتيرته.

لاحقت الآلام الشعب الفلسطيني خارج البلاد و عددا من الشعوب العربية الأخرى كشعوب مصر والأردن وسوريا ولبنان . عانى الشعب العربي من ويلات الحروب مع إسرائيل ومن الصراعات الداخلية وقصف الطائرات وأزيز القنابل وهدير الدبابات. في مصر، قصفت المدارس والمصانع ودمرت على رؤوس من فيها، وضربت المصالح الحيوية وأسقطت الطائرات المدنية وهجرت مدن بأكملها. في الأردن، فقد الناس في غور الأردن وإربد والسلط أبناءهم وممتلكاتهم جراء الاعتداءات الإسرائيلية، وعاش الناس فترات طويلة من الذعر والخوف. في سوريا، قصفت إسرائل المصانع والمعامل وهاجمت محطات الكهرباء والمواقع الحيوية. واستشهد آلاف من الجيش السوري، وهجّر أبناء الجولان ودمرت قراهم. أما عن لبنان فالحديث يطول. وما زال شعبنا العربي اللبناني يحمل السلاح ويقاتل بصلابة جيش الاحتلال الصهيوني.

عهد الثورة

اشتدت المقاومة الفلسطينية بعد نكبة عام 1967، وأخذت تقيم المعسكرات وتدرب الشباب وتشن الهجمات العسكرية على جنود الاحتلال. وقد تحمس الشعب الفلسطيني لهذه الحركة التي أصبحت تعرف بالثورة الفلسطينية، و تدافع الشباب على الانضمام إليها والناس على رعايتها ودعمها. وقد كان للفلسطينيين والعرب أمل كبير في أن تحقق هذه الثورة ما عجزت عنه الأنظمة، وأن تفتح طريقا نحو بناء الكرامة واستعادة الشرف العربي.

لكن المقاومة الفلسطينية وقعت في عدد من الأخطاء، أو سُيّرت ضمن سياسات أربكت صفوف المقاومين وأثرت سلبيا على التأييد الشعبي العربي لها وعلى التماسك الداخلي الفلسطيني. ويمكن تلخيص تلك الأخطاء أو السياسات في التالي:

1- عدم التمسك بقواعد أخلاقية ومعايير واضحة تضبط العمل المقاوم وتنظم علاقات المقاومة مع الجماهير مما أدى إلى تسيب كبير أثار حفيظة الناس وألّبهم ضد المقاومة. استمر التسيب في الأردن وانتقل إلى لبنان وتونس ومن ثم إلى الأرض المحتلة. لقد جلبت التصرفات والسلوكيات غير المنضبطة على الشعب الفلسطيني متاعب من أوساط عربية كان من المفروض أن تكون الظهير للشعب الفلسطيني.

2- فتحت أوساط المقاومة الفلسطينية أبواب التسيب الأمني داخل صفوفها، ولم تحاول تطوير برامج الفحص الأمني والتدقيق والمحاسبة والمساءلة. والنتيجة أن اخترقت إسرائيل الصفوف ولم تعد عاجزة عن الوقوف على أدق تفاصيل العمل العسكري الفلسطيني. ولهذا سقط الكثير من أبناء فلسطين المتحمسين في كمائن معادية أعدت لهم مسبقا.

3- سارت منظمة التحرير الفلسطينية حثيثا نحو التحوصل الفلسطيني على حساب البعدين العربي والإسلامي. أصرت القيادة الفلسطينية على أن قضية فلسطين عبارة عن قضية فلسطينية وأن الفلسطينيين قادرين على تحرير وطنهم. لم تكن هذه الرؤية حكيمة خاصة أن العدو الذي يحتل الأرض يحظى بدعم دول عظمى ويتمتع بقوة هائلة ولا تمكن مواجهته بطاقات محدودة كطاقات الشعب الفلسطيني. يحتاج الشعب الفلسطيني البعدين العربي والإسلامي وفي ابتعاده عنهما مقتله.

4- اشتهرت منظمة التحرير الفلسطينية والمقاومة في تبذيرها وتبديدها للأموال العامة، وانتقلت هذه الشهرة إلى السلطة الفلسطينية. تم استخدام الأموال بطريقة غير لائقة إلى درجة أن النضال أصبح في كثير من الأحيان مقابل المال. اعتاد الشعب التسول أو مد اليد لقاء تضحياته وتسابق اللصوص على جمع أكبر كمية من المال.

5- لم يتبوأ المناضلون القيادة خاصة في الأرض المحتلة وبقيت الأمور في أيد قريبة من الأمريكيين والإسرائيليين. حظي القياديون التقليديون الذي ينتمون إلى تراث من بيع الأراضي والتعاون مع العدو أو على الأقل الهروب من المواجهات بمكانة عالية وما يزالون محظوظين.

6- لم تملك المقاومة استراتيجية مواجهة واعتمدت على تكتيكات يومية خضعت لأمزجة شخصية. بقي الطابع الشخصي الذي لا تتسع آفاقه مهيمنا على اتخاذ القرار ولم تتطور بوصلة يسترشد بها الناس أو المقاتلون.

7- خاضت المقاومة حروبا في الدول العربية لم تكن ضرورية بتاتا ودفع الشعب الفلسطيني ثمنا باهظا بسببها. وهنا لا تبرئة لأنظمة عربية لأنها كانت تنتظر الفرص للقضاء على أي مقاومة كان يمكن أن تنشط ضد إسرائيل لكن الفكرة في أن القيادة الفلسطينية لم تقم بما يجب من أجل تجنب هذه الحروب.

8- لم تستغل القيادة الانتفاضة الفلسطينية لعام 1987 لتصحيح مسارها وتجديد شبابها لتصبح أكثر فاعلية في مواجهة إسرائيل، بل عملت على إجهاضها من خلال إذكاء التعصب الفصائلي الفئوي على حساب الوحدة الوطنية، وكرست مسألة الاستزلام وشراء الذمم من خلال استخدام المال. وبدل أن تدعم القيادة الانتفاضة استعملتها كتبرير للاعتراف بقراري مجلس الأمن 242 و 338 والاعتراف بالشروط الأمريكية لعام 1975.

هذه سياسات انتهت بالنضال الفلسطيني إلى تصغير بحجم أوسلو، وكأن كل التضحيات الفلسطينية كانت بهدف القبول بما تم رفضه شعبيا ورسميا عبر السنوات على اعتبار أنه خيانة.

نكبة أوسلو

بدا عبر الزمن أن هدف القيادة الفلسطينية كان متركزا نحو حل سلمي مع إسرائيل ضمن الرؤية التصالحية. وهذا ما حصل في اتفاق أوسلو إذ مثل الاتفاق الطرح الإسرائيلي الذي دأبت إسرائيل على تكراره منذ العام 1967. وقالت إسرائيل حينها أن الحل للمشكلة القائمة بينها وبين العرب لن يتم إلا من خلال مفاوضات ثنائية مباشرة مع الدول العربية. وبالنسبة للسكان الفلسطينيين قالت أنها لا ترغب في مواصلة إدارة شؤونهم وتفضل وجود سلطة عربية تأخذ مكان الإدارة الاحتلالية.

طرحت إسرائيل فكرة إدارة شؤون السكان على الأردن مع بداية الاحتلال، إلا أن قيادة الثورة رفضت الفكرة وحذرت من قبولها. وعادت إسرائيل تطرحها عبر السنوات وعلى الأخص عامي 1977 (مبادرة مناحيم بيغن) و 1981 (مبادرة ميلسون). وقد حاولت لدى السكان أن تقيم حكما ذاتيا بمعزل عن منظمة التحرير ومن خلال روابط القرى، إلا أنها فشلت. رفض الشعب مشاريع الحكم الذاتي على الرغم من أن القيادة كان لها موقف إيجابي غير معلن من اتفاقيتي كامب ديفيد. حتى أنها لم تكن سعيدة بالاجتماع الشعبي الذي عقد عام 1979 في جامعة النجاح ورفض الاتفاق المصري _الإسرائيلي.

احتاج الشعب الفلسطيني المزيد من الإحباطات لكي يقتنع بالحكم الذاتي. أتت حرب عام 1982 ومعها الشتات الجديد، وحصلت مجزرة صبرا وشتلا، وقصفت إسرائيل مقر الضباط الفلسطينيين في تونس. وتدهورت الأوضاع المعنوية والنفسية للشعب الفلسطيني. ثم أتت الانتفاضة التي أنهكت الجماهير ووضعتها في حالة من الاضطراب المعنوي وغياب الأمن. بذلك نضجت الأمور فتقدمت قيادة الثورة بمشروعها الذي قالت أنه دعم للانتفاضة والذي يتلخص بالاعتراف بقرار مجلس الأمن 242 و338 والقبول بالشروط الأمريكية التي وضعها وزير خارجية أمريكا عام 1975. تم ذلك من خلال المجلس الوطني الفلسطيني عام 1988.

لم تجد الولايات المتحدة عناء عام 1991 في عقد مؤتمر مدريد لأن الأجواء لدى القيادة الفلسطينية كانت ناضجة للسير في الحل السلمي مع إسرائيل. وجدت القيادة مبررا أمام الجماهير في انهيار الاتحاد السوفييتي وهزيمة العراق، وكانت تملك سطوة جماهيرية من خلال أموالها جعلتها قادرة على الذهاب إلى مدريد وسط احتفالات فلسطينية شعبية كان من ضمنها وضع أغصان الزيتون على بنادق الاحتلال وسياراته العسكرية. وقد كان في ذلك نكبة مادية حقيقية ماثلة أمام التاريخ. وهكذا وجد الفلسطيني نفسه منهارا أمام تحولات ظرفية فصالح نفسه بطريقة غير مشرفة مع احتلال ما زال يقمع ويقتل ويعذب ويعتقل.

جاءت اتفاقية أوسلو لتلحق بالشعب الفلسطيني أكبر تراجع تاريخي. كانت هي الاتفاقية الأولى في التاريخ التي يتنازل بموجبها شعب عن وطنه أو جزء منه لصالح عدو مغتصب بغيض. قد تُهزم الشعوب وقد تندحر وقد تقع تحت الاحتلال وقد تُطرد من مواطنها، لكنه لم يعرف التاريخ من هذه الشعوب من وقع على وثيقة يتخلى فيها عن وطنه.

لم تتوقف المأساة عند هذا الحد، بل وافقت قيادة الثورة على ملاحقة الثوار الفلسطينيين على اعتبار أنهم إرهابيين ويهددون المصلحة الوطنية الفلسطينية. تم التنازل عن جزء من الوطن ورضي الموقعون على ذلك أن يكونوا حراسا على المصالح الأمنية الإسرائيلية. هذا عمل سيبقى لعنة لا تلاحق الفلسطينيين فقط وإنما العرب والمسلمين أيضا.

أنجب اتفاق أوسلو اتفاقية طابا التي جزأت الوسط-الشرقي (الضفة الغربية) إلى مناطق ا و ب و ج. تحول الوسط الشرقي إلى أرخبيل فلسطيني أو إلى جزر سكانية تنفصل عن بعضها البعض وتيسر على الإسرائيليين تقطيع أوصال الفلسطينيين في أي وقت يشاءون. وبدل أن تبقى القضية الفلسطينية قضية وطن مغتصب وشعب مشرد أصبحت مشكلة سكان يحاولون العيش بنوع من الاستقرار المذل تحت الهيمنة الإسرائيلية.

نكبة الأنظمة العربية

نُكب الشعب الفلسطيني كما نكبت الشعوب العربية بأنظمة عربية استبدادية لا تملك من أمرها إلا قمع شعوبها. عدد كبير من الأنظمة موجود بفضل الدعم الغربي والإسرائيلي، وقادتها يعرفون أن بقاءهم على قمة السلطة مرتبط بما ينفذون من سياسات تخدم مصلحة الاستعمار الغربي وإسرائيل. وهم يعلمون أن أمريكا، على الأخص، قادرة على الإحاطة بالأنظمة واستبدال قياداتها وقيادات عميلة جاهزة. أما القيادات العربية الخارجة عن الخط الأمريكي والإسرائيلي فغير قادرة على التعاون فيما بينها ومعرضة باستمرار للضغوطات العسكرية والاقتصادية من قبل الدول الغربية. وهذه الأنظمة استبدادية أيضا وذات ممارسات تعكس مستوى أخلاقيا متدنيا.

بسبب عجز الأنظمة العربية وولائها لقوى معادية، حاولت القيادات أن تغطي عيوبها بالكذب والتضليل وأن تستعين بأجهزة مخابرات قمعية لا تعرف قيما إنسانية ولا تحترم كيان الإنسان وحريته. أوهمت القيادات الجماهير بأنها قادرة على فعل الكثير، وقادتها إلى هزائم متكررة في الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية. ومع تواصل الإحباطات، استدخلت الجماهير العربية الهزيمة كما استدخلها الشعب الفلسطيني ولو مؤقتا.

إن أسوأ ما قامت به الأنظمة العربية هو صنع ثقافات عربية متمايزة ومنفصلة بحيث يتحول التمزق العربي من فعل استعماري إلى مطلب جماهيري. وبثت الأنظمة الأحقاد بين الشعوب ومشاعر الكراهية حتى لا يكون هناك تفكير في الوحدة العربية التي تهدد مراكز القيادات. وقد تاجرت هذه الأنظمة بالقضية الفلسطينية وجلبت الويلات على الشعب الفلسطيني وابتدعت مقولة التضامن العربي لتعمية الناس عن الحقيقة.

نكبة المثقفين

فاخر الشعب الفلسطيني يوما بكثرة مثقفيه، وحاول أن يميز نفسه عن الشعوب العربية بكثرة المتعلمين والتوجه العلمي الذي يميز العقلية الفلسطينية. ولا شك أن الشعب الفلسطيني قد توجه إلى التعليم وارتاد أبناؤه جامعات العالم، واستطاعوا الحصول على الشهادات العالية والأهلية لشق طريق نحو مستقبل أفضل.

شق المثقفون طريقا وبحماس كبير نحو خدمة وطنهم وبلادهم وأمتهم وبرغبة لإحداث التغيير على مختلف الصعد واللازم للحاق بالأمم المتقدمة. وقد كان هؤلاء بحاجة إلى حاضنة توفر لهم الأجواء المتناسبة مع طموحاتهم. لكن الحاضنة وهي منظمة التحرير الفلسطينية م تكن على مستوى المسؤولية. عكست قيادات المنظمة نفسها على مختلف قطاعات الشعب وبثت سلوكياتها ومقومات عملها في صفوف الشعب ولدى مختلف فئاته. وقد سبق أن وصفت ما قامت به قيادة الثورة.

بسبب وجود التسيب الأخلاقي والفساد الإداري والمالي وتفشي روح الانتهازية وحب الأنا والبحث عن المصالح الخاصة، وجد المثقفون أنفسهم في مهب التيار الجارف الذي لم يكن يرحم من يخالفه. فمن شاء

من المثقفين أن يقبض على الجمر ويبقى صامدا حاول أن ينزوي حتى يتجنب التشهير والملاحقة أو أن يذهب إلى السجن إن أصر على موقف، ومن شاء أن يساير التيار وينحني وجد نفسه في قبضة الأمريكيين والإنكليز وغيرهم من الأوروبيين.

فتح الغرب أبواب خزائنه أمام المثقفين الفلسطينيين بموافقة القيادة الفلسطينية ومباركتها، وأخذت تستقطبهم في دورات تعليمية وتدريبية وفي منح دراسية ومن خلال تمويل أبحاث علمية. أغدقت الدول العربية العطاء وأوجدت التسهيلات المختلفة للمثقفين، وبدأت بإقامة مراكز علمية وبحثية تقوم على استقطاب الباحثين بهدف القيام بأبحاث مهمة للذين يتخذون القرار في الغرب وإسرائيل.

لا يعني هذا أن المثقفين تحولوا إلى جواسيس، لكنهم أصبحوا في خدمة المصالحة الغربية، وأصبح عدد منهم سماسرة معرفة يهددون المصلحة الفلسطينية ومستقبل الشعب الفلسطيني. عدد من مراكز الأبحاث في الوسط الشرقي وفي الجامعات الفلسطينية، تعمل لحساب الاهتمامات الغربية وتروج لها. وبسبب الإغراءات المادية وجد الكثير من الباحثين أن من مصلحتهم القيام بالمهام غير النظيفة خاصة وأن بعضهم يقول أن البلاد قد بيعت ولا تنفع الشعب بقية من ضمير.

الحقيقة مرّة وقاسية وهي تمثل أمام أعين باحث وكاتب مثلي. رأيت بأم عيني كيف بإمكان باحث فلسطيني أن يكتب عشر صفحات لصالح مؤسسة غربية ليحصل على ألف دولار بينما يكتب باحث ملتزم ألف صفحة دفاعا عن القضية وتثقيفا للناس ولا يحصل على عشرة دولارات. طبعا يعرف الباحثون أن الجهات الوطنية والإسلامية التي تنشر الكلام الملتزم لا تملك المال، ويعرفون أنها أضعف من أن توفر لهم وعدا مستقبليا بتحسن الأحوال. أي لا منافسة، فسقط الكثير من المثقفين. وأشير هنا إلى أن أغلب المثقفين الذين يظهرون على شاشات التلفاز ليسوا فقط أجيرين لدى مؤسسات غربية بل هم أيضا من المطبعين مع إسرائيل.

مثقفو فلسطين فاوضوا العدو الإسرائيلي بالنيابة عن القيادة، وهم الذين يقومون على تطبيع العلاقات مع إسرائيل ويقيمون علاقات التعاون والتفاهم، ويعرضون الأمن الفلسطيني للخطر. فإذا كان المثقفون ضمير الأمة، فإنه من المؤكد أن الشعب الفلسطيني منكوب في ضميره. ولا أستثني من هذا الحديث العدد الكبير من المثقفين العرب في مختلف الأقطار العربية.

وبعد النكبات

بعد هذا الإيجاز في النكبات الكثيرة التي حلت بالشعب الفلسطيني نجد أن الشعب تعرض لمحاولات من التجزئة والتقسيم في مقابل غياب البرنامج الثقافي الوطني الذي يجمع الجميع. وعلى الرغم من نجاح قد حققه أعداء الشعب الفلسطيني في هذا المجال إلا أنه يبقى محدودا ومؤقتا وغير جذري. ما يزال الشعب الفلسطيني متماسكا وسنجده يدا واحدة بمجرد أن تبدأ عجلة التغيير والحشد من جديد.

هناك انتفاضة دائرة حاليا في الأرض المحتلة/67 لكنها ليست عجلة التغيير المطلوبة لأنها تفتقر إلى البنى السياسية والاجتماعية والتنظيمية والأمنية والثقافية المطلوبة. النصر لا يحصل في فراغ ولا بد من تهيئة البيئة المناسبة له، ولا أرى أن البيئة قد تم إعدادها بعد. لكن الثقة بالله وبالشعب والأمة كبيرة ولا بد لليل أن ينجلي. للعار أعداء لا يحتملون ثقله ولا تنطوي تحت وطأته هممهم. هؤلاء تزدحم بهم الأمة التي لن تستمر في التنكر لتاريخها.